الحياة AL HAYAT
الخميس ١٠ تموز (يوليو) ٢٠٠٣ الموافق ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ/ العدد ١٤٧١٧
AL HAYAT THURSDAY 10 JULY 2003 ISSUE NO 14717

سعدي يوسف مترجماً سارة ماغواير

حياة داخلية مفتوحة على مشاهدات يومية

□ دمشق – بندر عبدالحميد

■ تبدو حركة انتقال الشعر من لغة الى اخرى بطيئة او متعثرة بالمقارنة مع حركة ترجمة الرواية أو البحوث الفكرية عموماً، كما تنصب اهتمامات الناشرين ومترجمي الشعر الى العربية على أعمال الشعراء الأكثر شهرة في القرن العشرين من جيل لوركا وأودن وإليوت، أو الشعراء الذين تلمع اسماؤهم فجأة حينما تهبط عليهم جائزة نوبل وتضع شخصياتهم واعمالهم تحت الأضواء الملونة.

لكن سعدي يوسف كشاعر ومترجم يحرص على مزاجه الخاص دائماً، فمع انه ترجم مختارات من «أوراق العشب» لوايتمان ومختارات من كفافي وغيره، الا انه يغامر ويقدم اعمالاً مترجمة الى العربية، في الرواية والشعر لأسماء تصل الينا للمرة الأولى، كما هي حال المجموعة الشعرية «حليب مراق» للشاعرة البريطانية سارة ماغواير (دار المدى –٢٠٠٣) وهي التي اصدرت ثلاث مجموعات شعرية منذ أوائل التسعينات من القرن الماضي حتى الآن (حليب مراق– الراتقة الخفية – دكان الأزهار في منتصف الليل».

يقول سعدي يوسف في مقدمته عن الشاعرة: «... انها تعتز بالأمانة إزاء الحياة، وبالإخلاص لها، وباستخلاص مادة النص من فاعلية المحيط، وبربط الذاتي الى الموضوعي ربطاً محكماً، فيه من الجمال قدر ما فيه من المعاينة». ويضيف: «سارة ماغواير ليست شاعرة لغة، انها شاعرة حياة مكشوفة، مكتشفة امامنا كما للمرة الأولى».

تضم المجموعة خمساً وعشرين قصيدة مختارة من المجموعات الثلاث للشاعرة، وتبدو هذه القصائد منشغلة بالروابط الخفية بين ما هو داخلي وما هو خارجي، المرئي والمحسوس في المكان ذاته والزمان ذاته، في الحياة اليومية المتغيرة، تلك التي ينجد الغائب فيها حاضراً دائماً، في التداعيات الحرة المفتوحة على المشاهدات اليومية القديمة والجديدة والمتخيلة، وارتباطاتها المركبة، حيث تبرز الاشياء الصغيرة، وتأخذ مكانها، في الحياة، وفي القصيدة معاً، جنباً الى جنب، الزر الصغير والبحر، والبرتقالة والمدينة، في حضور الضوء والعتمة، الهواء والبحر، الضباب والمطر، الزجاج والنافذة، الغروب والألوان، بينما يحمل الزهر اكثر من اسمائه وألوانه ونكهاته المختلفة المعروفة: «هطل المطر طوال العشية / والنور المتقطر ماء على الزجاج / يسيل في نفسي / مسكك على شفتي».

ويستحضر الغائب نفسه، أو تستحضره الذاكرة، من خلال الاشياء أو الأمكنة، أو التداعي الحر، أو التخيل المندفع من حاجة انسانية طارئة:

«أبسط كل رسائلك / على منضدتي / لأتبين أسفارك / رسائلك ملأى بالألوان المائية / مرافئ في غالبها تتطلع الى النور».

رصدت سارة ماغواير صورة الأزهار والنباتات في سبعة قرون من الشعر الانكليزي وقدمتها في انثولوجيا خاصة، وهي أول كاتبة يكلفها المجلس الثقافي البريطاني بمهمة ثقافية في فلسطين واليمن حيث قدمت انماطاً من الشعر العربي الى القراء البريطانيين، الى جانب نشاطها في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة لندن ومساهماتها في البرامج الثقافية الاذاعية في اذاعة «بي بي سي»، فهي مشغولة بمصائر الشعوب والأمكنة القديمة والجديدة، القريبة والبعيدة من افغانستان الى المكسيك:

«واحدنا لا يتكلم لغة الآخر / وهكذا تكشف قميصك / لتعطي العلامات لتريني جراحك».

ولكن هذا الاتساع، أو التنوع، في اهتمامات سارة ماغواير، في الوجهين الحياتي والشعري، لا يمنعها من تأمل نفسها وتلمس جسدها، كامرأة لم تستطع مقاومة تاثير دراسة الزهور على حياتها.

تجهيز لندى صحناوي تحت شمس الصيف ضم ٢٠٠ نص

«ساحة الشهداء» في بيروت مقبرة جماعية للذكريات

□ بيروت – مهى سلطان

■ بعد مضي قرابة أربعة عشر عاماً على نهاية الحرب اللبنانية، تتذكر الفنانة التشكيلية ندى صحناوي بيروت التي لم تعها فوجدت أنها ضحية من ضحايا الحرب وأن وجعها الحقيقي ناجم عن عدم امتلاكها ذاكرة عن مدينتها التي نشأت فيها. فأرسلت نداء الى عامة الناس وجّهته عبر الصحف وبعض المواقع على الانترنت تسأل: «هل لديك ذكرى من الحياة اليومية في البلد – وسط مدينة بيروت قبل الحرب؟» وإذا بمئات اللبنانيين يتذكرون – على نحو مفاجئ – بيروت كما كانت قبل الحرب عبر نصوص كتبوها كي تكون مادة بصرية لعرض تجهيزي تقيمه أمل طرابلسي باسم غاليري «ايبروف دارتيست» في ساحة الشهداء على مساحة قدرها ١٠٠×١٣٦م في وسط البلد الذي تحول ملتقى لذكريات الناس.

بعيد زهاء ٣٦ إعلاناً أثمرت ايداع نحو ٢٠٠ نص باللغات العربية والفرنسية والانكليزية كانت حصيلة استجابات المهتمين بالموضوع من مختلف فئات المجتمع ومن أجيال متعددة. واندرجت ضمن العناوين الآتية: ذاكرة مستعادة وذاكرة مفقودة وكسور ذاكرة. أما وجود الأوراق الخالية فهي دليل على ان المشروع ليس مقفلاً بل بإمكانه استقبال المزيد من النصوص التي ستوثق في كتاب يتناول هذا العمل التجهيزي برمته.

العابرون مشياً على الأقدام أو في سياراتهم يكتشفون في ساحة الشهداء مقبرة جماعية من الصحف. وقد استقلت بالأرض كحامل أساسي للمشروع بعدما رُتبت وستفت في رزم مرصوصة بلغ عددها ٣٦٠ رزمة متساوية السطوح وعلى مسافات متناظرة. يفصل بين كل رزمة وأخرى متران. وبلغ علو كل ٦٠٠ عدد من الجرائد ٧٠ سم ثم وضع على ظاهرها النص المكتوب بخط اليد أو المطبوع على الكومبيوتر. وقد طليت الجوانب الأربعة لكل رزمة بالغراء منعاً لتطايرها. قد لا يعطي المنظور الأفقي لهذا التجهيز المُنشأ في الفراغ شيئاً إذا قيس بالنظر اليه من الأعلى، لأنه سيكشف عن مستطيل كبير داخله مربعات. ألهذا خرجت ندى صحناوي من إطار اللوحة المعلقة من أجل أن تعود اليها ثانية في تشكيلها الأرضي الذي يخلو من الإحساس بالفضاء وأبعاده؟

أرتال الصحف والذكريات. (علي سلطان)

قد يخبئ هذا الانشاء المتواضع صدمة أو خيبة للذين يحلمون بمشروع ناهض في الهواء الطلق لفرط الامكانات والاحتمالات التي يتيحها هذا المكان الاستثنائي التاريخي الحميم الذي طالما كان قلب بيروت النابض ونسيج حكاياتها ومفتاح أسرارها. بيد أن الفكرة في بساطتها الشديدة وتقشفها سواء في خامتها أو تصميمها، تحمل مضامين إنسانية عميقة ذات طابع جماعي. فالذاكرة هي الموضوع الذي اشتغلت عليه ندى صحناوي منذ العام ١٩٩٣. وبدا ظهور المربع بمثابة حجر الثقل لتلك الذاكرة، في انتماء صريح الى فن المينيمال الذي يقول مضامين كثيرة بأقل الوسائل.

نصوص لا تخلو من الطرافة والشغف والحب العميق وكذلك من الوجع والحسرة والتأسف. انها أصوات من الماضي جاءت لتسترجع الأيام الحلوة لبيروت وتلك الدهشة التي زرعتها في العيون: من تقليعات الموضة الآتية من باريس الى أناقة واجهات المحال الى طرائف رواد المقاهي وتجار الأقمشة والحلاقين في تلك الأزمنة. كان قلب المدينة مكاناً للفرجة والتسكع والتسلية والتبضع والعيش بحرية. ذلك ما جعل منها نموذجاً لمدينة حية ليست كسائر المدن. لكن العيون التي غرفت من معين بيروت لم يبق لها غير كنز الذكريات وما تخلفه متعة استرجاعها من سعادة صغيرة، كذكريات الطفولة والصبا التي احتضنتها شوارعها وأحياؤها العتيقة.

كأن ثمة سحراً للأمكنة التي أخذت الناس الى أبعد من المكان نفسه: الى عروض التياترو الكبير ودور السينما: الدنيا والراديو سيتي والروكسي والامبير والمتروبول والريفولي والكابيتول ثم تأتي حياة المقاهي ويكتمل ذلك الايقاع بأسواق اللعازرية وسرسق وأياس والطويلة التي كانت تشهد زحمة لا توازيها إلا زحمة أسواق الخضار كسوق النورية وسوق الافرنج. وثمة من يتذكر مقهى «لا باليت» الواقع على مقربة من جامعة الألبا، الذي كان حينذاك ملتقى الفنانين والأدباء ونقاد الفن ومنبراً للنقاشات المثيرة للاهتمام.

في هذه الاستعادة للأمكنة تدفقت الذكريات غنية وحميمة. فالذي تذكر طعم الشوكولا – مو في الاوتوماتيك ولذة الحلويات في الباتيسري سويس وطعم الليموناضة قرب بركة سوق أياس. والتي تذكرت أول صدارة نسائية اشترتها من محال لانجري زهار. والذي كتب خواطره على ورقة من محال البكاديللي التي كان يمتلكها في شارع سرسق. ثم نكتشف نصاً للكاتبة مي غصوب تتحدث فيه عن مسرح فاروق. وبمحض المصادفة نعثر على حوار مع الأديبة حنان الشيخ بالفرنسية، تتذكر فيه للمرة الأولى التي ذهبت الى سينما الريفولي حيث رأت عاهرة في السوق العمومي، وتقول إن قلب بيروت يوقظ لديها دوماً مشاعر غامضة تتعلق بوالدتها المرتبطة ذكراها بنجمات السينما المصرية. إذ كانت تحفظ أغاني تلك النجمات وحواراتهن في الأفلام عن ظهر القلب. وأثار فواز طرابلسي موضوع التظاهرات فكتب يقول: «كانت كل المناسبات للتظاهر أو الاعتصام. ما من موضوع أو قضية لم نتظاهر لأجلها. أحياناً لم نعد نعرف ما الذي نتظاهر من أجله ثم صار قمع التظاهرة يجر الى تظاهرة احتجاج على القمع وهلم جرّا»... وتثير الانتباه النصوص التي تحدثت عن مشاعر الوافدين الى بيروت من المدن والقرى والأرياف كالنص الذي كتبه الشاعر عقل العويط عن رحلته المدهشة الى عالم بيروت زمن التنقل بالبوسطة حين كان طالباً يدرس في كلية التربية.

ما من زائر ينكب على قراءة بعض النصوص هنا وهناك إلا ويبدو من بعيد كأنه يفتش عن بلاطة فقيد له. لا يهم اسم من أو توقيع من. علماً أنه يعثر على أسماء معروفة جاءت من عالم الأدب والرواية والسياسة وعلم الاجتماع والقانون وسواها. وبعيداً من براعة الأقلام ولباقة الرواة المحترفين نكتشف أن أجمل النصوص وأطرفها صادرة عن الناس العاديين من طبقات شعبية متنوعة. فنقرأ صفحات من الذكريات تحت شمس الصيف اللاهبة كأننا ازاء كتاب مفتوح.

ساحة الشهداء في وسط البلد التي استملكتها شركة سوليدير، رجع اليها أهلها هذه المرة بماقيهم ومشاعر قلوبهم ومداد أقلامهم. أعادوا الى الأذهان حنيناً غامضاً من عجلة الحياة اليومية في حقبة الستينات والسبعينات من القرن المنصرم بالأسماء والتواريخ والأحداث في بناء قصصي متقاطع ومثير. كأننا إزاء فصول من رواية لما تنته.

«أبواب» تبدأ مرحلة جديدة: نصوص مترجمة

■ خطوة جديدة تنجزها مجلة «أبواب» (فصلية عربية تعنى بالأفكار والثقافة) مع عددها الجديد (٣٣) متحوّلة الى منبر مفتوح أمام أقلام عالمية وما تثير من قضايا ومواقف. فالمقالات والأبحاث والنصوص التي تضمّها المجلّة هي مختارة ومعرّبة من حقول معرفية شتى. ويوضح بيان هيئة التحرير أبعاد المرحلة الجديدة التي باشرت المجلة بها، ومما ورد فيه: «مع صدور العدد «٣٢»، كانت «أبواب» قد توجت مسيرة دامت قرابة تسع سنوات، كرّست خلالها صفحاتها لقوس قزح من الآراء، ولمتابعات... وهي مسيرة تفخر بها أسرة «أبواب»، وتجد فيها كل ما يشجّع على الاستمرار. بيد أن تكاثر المنابر، اليومي منها والأسبوعي، الشهري والفصلي، التي تحضن نشاطاً مشابهاً في التعريف بأوجه التفكير والثقافة العربيين، دعانا الى التجديد والاستمرار بطريقة أخرى: فمع العدد الحالي (٣٣) تحوّل «أبواب» صفحاتها منبراً لنقل التيارات الرئيسة في الفكر والسياسة والثقافة العالمية، مترجمةً بعض أبرز ما يُنقل في المجلات الغربية التي لا تتوافر للقارئ.

وإذا قام الرهان، هنا، على الإسهام في توسيع المعرفة بما يجري في العالم، وخدمة الجهود الآيلة الى التنوير، فإن حلقة المراهنين تتعدّى أسرتنا الى أصدقاء «أبواب»، كتّاباً وقرّاء، والى أصدقاء محتملين آخرين نحن واثقون من أنهم موجودون بكثرة، وسيجدون في الصيغة الجديدة، إما صدى لاهتماماتهم أو حافزاً ومعيناً على المضي فيها».

ومن محتويات العدد الجديد: جون ديديون: اساءة استخدام ١١ أيلول (سبتمبر)، مايكل ولزر: الحرب والطريق الصائب، مايكل ايغناتييف: أميركا الامبراطورية وأميركا الجمهورية، آلان ريان: هابرماس أو قوة التفكير الإيجابي، انشومان أي موندال: إسلام ليبرالي؟، محمد خالد مسعود: «فقه الأقليات» في الإسلام، غاري ويلز: الجنس في السجال الكاثوليكي، الكسندر ستيل: أنطونيو نيغري و«امبراطوريته»، كينيث ماكسويل: برازيل «لولا» حيال الولايات المتحدة، ستيفن سيدلي: هل من نهاية لعدالة المنتصر؟، وندي بونافنتورا: التانغو أو معركة الجنسين رقصاً، ميشيل آر: لعبة «الأفوريسم» في اللغة، بيلا توماس: ما الذي يشاهده الفقراء؟، كاميال فان وينكل: الفن والمتحف، بارت لوتسما: المبالغة في تقدير الطبيعة، رايموند كارفر: هاتفني إذا احتجت إليّ.

مدارات

يكتبها أدونيس

في القاهرة، تلك اللامرئيّة

– ١ –

في قلب القاهرة، هذه المدينة التي تمثّل إحدى العواصم العريقة للإبداع البشريّ، يصطدم الزائر بأقوال تبدو كأنها نوعٌ آخر من أسلحة «الدمار الشامل» – لكن ضد هذه المدينة بالذات – أقوال منشورة باسم تمجيد الإسلام والدفاع عنه لا يمكن أن يرى الإنسان كلاماً أكثر إيذاءً للإسلام، وأكثر إيغالاً في تشويهه.

على سبيل التمثيل، لا الحصر:

يقول الدكتور محمد عمارة، الذي يوصف بأنه باحثٌ إسلاميّ متنوّر، في «يوميات الأخبار»، الجمعة ٤ تموز (يوليو) ٢٠٠٣. جريدة الأخبار، بعنوان: «القدس أمانة عمر في انتظار صلاح الدين»، يقول ما خلاصته:

١ – «خاض (صلاح الدين) معركة كبرى وطويلة على الجبهة الفكرية والثقافية ليحل الفكر السنّي محل المذهبيّة الإسماعيلية – الباطنية»، وذلك من أجل «توحيد الأمة على المذهب السنّي قبل البدء في معركته الفاصلة لتحرير القدس».

٢ – بلَغَ من التزام صلاح الدين وتشدده في هذا الأمر الحدّ الذي أغلق فيه الأزهر ذا المناهج الشيعية، حتى تغيرت مناهجه الى الفكرية السنّية. ومع الدولة والعلم والفكر والتعليم تحوّل القضاء الى المذاهب السنّية أيضاً».

٣ – «وتحصيناً للجبهة العامة المكرسة كل طاقاتها وإمكاناتها (هكذا، وهي عربية بالغة الرداءة) وجميع ثغورها لتحقيق استراتيجية التحرير، بلغ صلاح الدين حد التشدد ضد كل الفكريات والفلسفات والإيديولوجيات المخالفة للسنّة، عقيدة الأغلبية وإيديولوجيتها، فقضى على دعاة الإسماعيلية الباطنية، وأمرَ ابنه حاكم حلب بإعدام فيلسوف الغنوصية الاشراقية، السهروردي (١١٥٤ – ١١٩١ م)، لما أثاره في مناظراته مع الفقهاء من بلبلة فكرية كانت تخلط الأوراق بين الحضارات والثقافات، فتضع زرادشت وأفلاطون مع نبيّ الإسلام. وتخلط محاورات أفلاطون مع الوحي الكلداني بالقرآن الكريم، الأمر الذي يميّع الجبهة الفكرية باعتماد منهاج «الاشتباه والنظائر» في وقت يحتاج فيه الصراع مع الآخر الى اعتماد منهاج «الفروق» للتميز عن الآخر، ولملْء الوجدان بالكراهة له، كشرطٍ من شروط التعبئة والانتصار».

انتهى كلام الدكتور.

إنه يقول لأُولي الأمر في الإسلام اليوم ان عليهم إذا شاؤوا تحرير القدس والانتصار على العدو، أن يبدأوا أولاً بتحصين الجبهة الداخلية أي بقتل الشيعة، وإبادة الفكر الشيعي!

وكان على هذا الدكتور أن يضيف الى استراتيجية صلاح الدين تلك المقابر الجماعية التي أقامها للكتب الإسلامية الشيعية آمراً بتحويلها الى «حطب» يُحرق في البيوت والشوارع لتدفئة العقول الباردة، وأن يربطها، تَحيةً واعتباراً، بـ«حفيداتها» – المقابر الجماعية للبشر في العراق، والتي «حصّنت» الجبهة العراقية الداخلية، ومهدت لانتصار ذلك «البطل» الآخر، «الحفيد» المقدام، صدّام!

أليس في ما يقوله هذا الدكتور إهانةٌ لعقل هذه «الأغلبية» التي يتكلّم باسمها؟ أليس فيه تحريضٌ باسم الدين لقتل جميع الذين يخالفونها الرأي؟ خصوصاً أن هذا القتل شرطٌ ضروري لانتصار هذه «الأغلبية» على إسرائيل وأميركا. وكيف تمكن محاربة الاستعمار «الخارجي» بمثل هذه العقلية التي يمثلها هذا الدكتور، وهي النموذج الأكمل لأبشع أنواع الاستعمار «الداخلي» – استعمار الحقيقة والعقل والمنطق، إضافة الى الدين؟ أليس هذا «الاستعمار الداخلي» الحليف الأول لذلك «الاستعمار الخارجي»؟

يمكن طبعاً أن تُكتب كتبٌ كثيرة حول هذه الآراء التي يبشرنا بها الدكتور المتنوّر، وأن تُناقش سياسياً وفلسفياً واجتماعياً بوصفها بؤرة لداء تاريخي – ثقافيّ مميت، داخل الإسلام. مميت ومهين لجميع قيم التعقّل، والحرية، والكرامة البشرية.

لكن، لهذا شأنٌ آخر.

الأعجبُ في الأمر هو أنّ بعض المثقفين المصريين يجدون أنفسهم مندوبين، باسم الحرية والتقدم، للاحتجاج على مؤتمر شارك فيه زملاء لهم من مختلف البلدان العربية، وبدعوة من القاهرة نفسها، من أجل أن يتدارسوا مشكلات الحرية والتقدم، غَير أنهم لا يجدون «الوقت» أو «الحاجة» للاحتجاج على مثل هذا «الفكر» الذي يُنْتَج، ويُنْشَر، ويُعمَّم، في عقر دارهم، ويطنّ يومياً حول آذانهم!

– ٢ –

بعيداً، بعيداً من هذا «الفكر» ومن جميع الذين يمالئونه، بشكلٍ أو آخر، تأخذني القاهرة.

تأخذني الى الجميل، الخفيّ فيها. وهو شعورٌ يتملّكني في هذه المدينة أكثر ممّا يتملّكني في أي مدينة عربية أخرى. ويبدو لي أنّ الواقع، أو ما نسميه كذلك، يتجلّى لي عبْرَ هذا الشعور، في أعقد صوره وأكثرها إيحاءً. لا واقع القاهرة وحدَها، وإنما كذلك الواقع العربيّ برمته. لهذا الواقع صورةٌ ربما كانت الأكثر قرباً الى ما يقوله جياكوميتي في وصفه الواقع: «ذَرّاتٌ تتحرك في فراغ عميق أسود».

وبدءاً من التأمّل في ذلك الخفيّ الذي تحتضنه القاهرة، تلتهمني أسئلةٌ كثيرة. تلك هي بعضها:

أ – يموت الناس عادةً من كثرة العمل،

لكن العرب يموتون، لا من كثرة العمل، ولا من قلّته، بل من انعدامه. لماذا؟

ب – لماذا، إذا شئتَ أن تتأصّلَ في المدنية، يتوجّبُ عليكَ أن تقتلعَ نفسَك من «نظامها»؟

ج – لماذا لا يجلس «الفضاء العربي» ولو مرّةً واحدةً على كرسيّ الاتهام؟ وهل ذلك عائدٌ حصراً الى أن «الاعترافَ» كلمةٌ غير موجودة في «الأرض العربية»؟

د – لا يليق بالكائن البشريّ أن يرضى من الحياة أو أن يكتفي بربُعها أو بنصفها. لكن، لماذا كلّ شيء في الحياة العربية يفرض عليك أن تَرْضى وأن تكتفيَ بأقلّ من ذلك، بما يقارب اللاشيء أحياناً؟

(وإلاّ، فإنّ الطريقَ الى القبر واسعةٌ وسريعةٌ جداً).

هـ – نهاراً، يقتل ويحفر المقابرَ الجماعيّة،

ليلاً، يقرأ أسماء القتلى ويكتب الروايات: هكذا كان صدّام حسين.

كيف أمكن إذن أن يؤيّده ويدافع عنه عددٌ كبيرٌ من الشعراء والمفكرين والكتّاب العرب، من اليسار واليمين، على السواء؟ كيف لا يزال بعضهم حتى بعد سقوطه المُخزي، يؤيّده ويدافع عنه؟ ولماذا لا يُحاكَم عربياً ويُدانُ ليلقى جزاء جرائمه؟ ألا يبدو أن «الطينة» التي تتكوّن منها ثقافة هؤلاء هي من «عجينة» هذه السلطة؟ ألا يبرهن هؤلاء عملياً أنّ ثقافتهم هي نفسها تقتلُ كذلك نهاراً وترقص ليلاً؟ أنّها أبجديّةٌ عربية – وما أكثر قَتْلاها الذين تتدحرج رؤوسهم يومياً على صفحات الجرائد والمجلات والكتب، وعلى شاشات التلفزيون؟

وماذا تفعل الجمعيات الثقافية العربية؟ وماذا تفعل اتحادات الكتاب العرب؟ أليست هي الأخرى، في معظمها، قبوراً جماعية؟

و – لماذا يتحدث بعض المفكرين والكتّاب العرب عن الديموقراطية في الأنظمة العربية، ويعقدون المؤتمرات للكلام عليها، كأنها موجودةٌ حقاً، ولا تحتاج إلا الى بعض «الإصلاح»، في حين أن «النظام العربي» لم يعرفها في تاريخه كله، منذ نشوئه، وفقاً لمبادئها ودلالاتها، كما حددها مؤسسوها في اليونان القديمة، أو طبقاً لوصف تُوسيديد لها، قائلاً: «يُسمى دستورنا ديموقراطياً لأن السلطة في يد الشعب كله، وليست في أيدي أقلية»، ووفقاً لما استقرّت عليه، في الممارسة والنظر، لدى معظم الشعوب في الغرب؟

ز – الحرب المتواصلة العربية – العربية، كيف يكتمل الكلام عليها، إلا بالكلام على الحروب التي لا تُحصى «داخلها»، قَبْلها، بَعدَها، وما حولَها، وفيما وراءها؟

الى متى، سيبدو الواقع العربيّ، منظوراً إليه من القاهرة اللامرئية، كأنه شبحٌ هائلٌ، مُعلّقٌ على خشبةٍ هائلةٍ اسمها الأرض العربية؟

ح – لماذا يُصرّ بعضهم على أن يروا في الكتابة الشعرية، وحدها، القدرةَ الكاملةَ على «خَطْم» الواقع العربيّ، كما يُخْطَمُ البَعير؟

هل لأنهم يتبنّون حديث شَدّاد بن أوس القائل:

«ما تكلّمت بكلمة،

إلاّ وأنا أخطمُها»؟

أم لأنّهم يُصَرّون على أن يخطموا بالكلام، لا الواقعَ وحده، بل البشر كذلك؟

أم لأنّهم يؤمنون بالحديث الذي يُروى على لسان لقيط (انظر «لسان العرب»، مادّة: خَطَم) حولَ قيام الساعة، والعَرْضَ على أَلَّه: «وأمّا الكافر فتخطمهُ (أي القيامة) بمثل الحُمَم الأسود»؟ أم لأنهم يؤمنون بحديث حُذَيْفَة بن أَسيد:

«تخرجُ الدَابَّةُ / ومعها عصا مُوسى وخاتم سليمان،

فَتُحلّي وَجْهَ المؤمنِ بالعَصَا، / وتخطمُ أنفَ الكافرِ بالخاتَم»؟

– ٣ –

... غيرَ أنّ القاهرة اللامرئية توحي كذلك أن الحياةَ لا تُعاشُ، ولا تُفهَمُ إلاّ بوصفها ينبوعاً للتناقضات. انّ النقائضَ وحدةٌ في أيّ مغامرة خَلاّقة. انّنا لا نحتضنَ الواقع إلاّ بقدْر ما نغوصُ في المخيّلة. انّه يتعذّر علينا في «هذا الواقع العربيّ» أن ننفُض عن أجسادنا غُبارَ التاريخ، ويتعذّر علينا في الوقت نفسه أن نَتّخذ من هذا الغبار ثياباً لأيامنا. انّ الأيام، إن كانت مجرّد استمرار، مجرّدَ بقاء، لا تليق بالإنسَان، وأن عليه أن يتجرّأ ويبددها. أن يرميها من النوافذ. من الأبواب. في الشوارع. في الساحات العامة. في الدروب. من دون حساب وبلا ندم. وأن نعيش ما «نملكه» حقاً في حياتنا، بعيداً من الأسئلة.

... بعيداً من الأسئلة.

ما أقصرَ نظري. لا أرى من القاهرة إلاّ ما لا أراه. لكن، يتطاير حولي في الشوارع غبارٌ يُسلّم عليّ صامتاً، غبارٌ أشمّ فيه أريجاً لبقايا قديمة غامضة من غبار طَلْعٍ قديم غامَض.

ويا لذلك الخليج الغَائر في متاه الجسد. الخليج الذي لا يكفّ عن النشيج. المتاه الذي تعرفُ المرأة وَحدها كيف تخترقه نقطةً نقطةً، وكيف تتخذ من ماء ذلك الخليج ثوبَها الأكثر غوايةً والأكثرَ شفافية.

امرأةٌ – في هوائها يتنفّس النيل. في فضاء أعضائها، تتنقّل إيزيس. امرأةٌ عيدٌ. امرأةٌ ليست وحدَها جسدَها. وليست جسدَها وحده. امرأةٌ يسهر عليها الضوء.

تأخذ الأفقَ إليها. تُمسك بأطراف الوقت، فيما يَنْسكِبُ النهارُ والليل سائلَيْن في عطرها الراشح من خلاياها.

امرأةٌ – شَفَة الرَغبة وشَفَةُ النَشوة فمٌ واحد.

وكيف يمكن النَّومُ، إلاّ على وسادةِ الجنون؟

– ٤ –

... بعيداً، بعيداً،

هكذا يُخيّل إليّ، هذه اللحظة، انني أرى رعاةَ بقرٍ يسكنون فضاء القاهرة، إحدى عواصم الإبداع البشريّ، ولا دليلٌ على وجودهم، خارج المشيئة الكونية – مشيئة المصادفات.

ويُخيّل إليّ، هذه اللحظة، كأنني أسمع أصواتهم تتمازَجُ وتذوبُ في موسيقى تعلّم أنّ في السماء روحاً لا تفرز إلاّ المادة. أنّ على كلّ منا، نحن البائسين الذين لا وطن لهم إلا الكلام، أن يتهيأ لكي يُعلّم بَحْرَ أحزانه كيف يصنعُ لخطواته شاطئاً من الرمل.

– ٥ –

... لكن، ثمّة نحيبٌ يتقافزَ بين الأزقة، متوكئاً على الجدران، وعلى النفايات. لكن، ثمّة مطرٌ من الجراح لا من الغيم.

لكن، ليس لأيّ جسد أن يبني وَطنه الحقيقي، الأخيرَ والأول، إلا في جسد آخر. لكن، كلّ شارع كتابٌ

وكلّ شيء يعلّمكَ أن تكرّر دائماً: ما أنا بقارئ!

وأنتَ، أيّها البريقُ الذي نسمّيه المستقبل، ما الجبال والسُّهوبُ والأوديةُ التي ستقطعُها بين سنّ المراهقة وسنّ الرُشد؟

ولا تنس: مساوكَ جاهزٌ دائماً على المائدة!

ومنذ هنيهة، تبتعث يَدُ النهار بكرز الحياة. هبط الكرزُ حبةً حبةً في تجويف الوقت، فيما كان الليل يتعلّم الصعود.

بعيداً، بعيداً، يبقى في هذا الوقت «الإباديّ» الظاهر، تجويفٌ «باطنيٌ» تخرج منه أحلامٌ وتُعاش، فيما وراء المقابر الجماعية – أكانت للكتب أو للبشر، وأبعدَ من هذا الظلام الغامر.

بعيداً، بعيداً، تُدفع الأبديّة لكي تُصحح خطواتها ولكي تعيد النظرَ في إيقاع الأزمنة، فيما يُدفَعُ العرب المسلمونَ لكي يتقلّصوا في «الكراهية»، كما يعلّم الدكتور عماره، لكي يُصبحوا عاجزين عن كل شيء إلا شيئاً واحداً: التهامُ بعضهم بعضاً.

هكذا لا تكفّ تعاليم الدكتور عماره عن زراعة الزهور البلاستيكية، ولا تتوقف عن حياكة عباءاتها وبُسُطها، وها أنا، أكادُ في كلّ شارع من شوارع القاهرة أن أسَير على بساط باذخ من غُبارها السماوي. ومن شرفة الفندق، أرى في هذه اللّحظة الى الشمس، فيما تتدحرج على سُلّم الغروب، وأشعر أن رؤيتي هذه كافيةٌ لكي أقرأ ذلك الفلكَ البعيدَ – القريبَ، فلك الحزن الذي تدور فيه القاهرة، هذه المدينة العظيمة الآسرة.

وها هو النيلُ، ملْءَ عينيَّ، يسير بخطواته الوئيدة الصابرة، كما عوّدنا. ويُخيّل إليّ أنني أستطيع أن أرى في كلّ تموّج من تموّجاته، محيطاً من الأعاجيب، وأن أطلق فيه سفينةً جامحةً، وأترك الموجَ يَصْطفِق حتى على شُطآنِ السَّراب.

– ٦ –

سرْ قليلاً على الماء

يا مَسيحَ المرارات.

وأنتَ، ارفع كأسكَ أيها الفضاء، واشربْ نَخْبَ الرّيح.

(القاهرة، ٢ – ٤ تموز / يوليو ٢٠٠٣)